

اليونان

(١)

يبدو أن العلاقات المصرية اليونانية الطاعنة في القدم منذ آلاف السنين والتي كانت تتجلى في مظاهر فريدة، مثل إقامة مدينة يونانية كاملة في مصر خلال القرن السادس قبل ميلاد السيد المسيح، وهى مدينة «نقراطيس» وغيرها من المدن التى كانت تمتاز فيها الحضارتان اليونانية والفرعونية وتنقل أهم مظاهرها إلى البلدين، يبدو أن هذا التراث الحضارى والعلاقات الوطيدة بين البلدين لم تضع هباء بل زادت مع الأيام والسنين وهذا أول انطباع شعرت به خلال زيارتي لمدينة «أثينا» عاصمة الفكر والفلسفة والنور في التاريخ القديم.

بعد وصولي إلى مطار أثينا مباشرة وبينما كنت أبحث عن رقم تليفون إذا بمواطن يوناني يبتسم لى ويتحدث معى باللغة العربية

بل وبالعامية المصرية.. أنت مصرى؟ أهلاً وسهلاً أنا عشت في مدينة بورسعيد هل تنتظر أحداً؟ هل تريد تليفون؟.. تفضل التليفون هناك.. تريد تحويل عملة؟ لماذا؟ لا تشغل بالك إنها مجرد اثنين دراخا تفضل - الدراخا هي العملة اليونانية والواحدة تقدر بقرش واحد تقريباً - وسرعان ما تركنى المواطن اليونانى بعد تقديم المساعدة لى، وحتى قبل أن يعرف اسمى، إنه لم يعرف عنى أى شىء سوى أننى مصرى، وكذلك لم أعرف عنه شيئاً سوى أنه يونانى عاش في مصر وشرب من ماء نيلها وتحدث بلغتها، ودفعه هذا تلقائياً إلى مساعدتى، فالصداقة القديمة بين الشعبين، والحضارة المتبادلة بين البلدين ما زال أريجها يلامس الأنوف، عبر السنين.

وطوال إقامتى في اليونان قابلت عدداً من المواطنين اليونانيين الذين عاشوا في مصر فلم يستطيعوا نسيانها ولم تستطع الأيام أن تمحو ذكرياتهم العديدة المختلفة فيها، إنهم ما زالوا يذكرون أين كانوا يقيمون في الإسكندرية، بورسعيد، القاهرة، حتى شبرا، الموسيقى، مصر الجديدة رقم كذا، حتى أسماء الحارات، والمحلات التجارية والأشخاص الذين يعيشون فيها، ما زالت عالقة في أذهانهم ومحفورة في ذكرياتهم، إنك تقابلهم أيضاً في كل مكان في اليونان، في المطار أو المحلات التجارية أو الأتوبيسات أو على المقاهى الكثيرة المنتشرة في كل الأرجاء، وسرعان ما يتقدمون

إليك ليعرضوا مساعدتهم بمجرد أن يعرفوا أنك مصرى.

واليونان بلاد جميلة تقع في الطرف الجنوبي الشرقى لأوروبا وهو موقع استراتيجى هام يطل على كل القارات تقريباً ويعتبر مركزاً رئيسياً للمواصلات العالمية، وتمتاز اليونان بطبيعة رائعة متنوعة، فمساحتها ١٨٢ ألف كيلو متر مربع منها ١٥٧ ألفاً في جسم القارة الأوربية و ٢٥ ألفاً على شكل جزر فالجزر تشكل نسبة ١٩٪ من المساحة ويبلغ عددها أكثر من ألفى جزيرة كبيرة وصغيرة في بحر إيجه وبحر يونيو وغيرها من البحار اليونانية. أما شمال اليونان فهو أرض جبلية بها جبال شاهقة عملاقة تكسوها الخضرة وتنتشر فيها الأشجار الوارفة، ويبلغ عدد السكان حوالى ١٣ مليون نسمة وهناك ٢,٥ مليون مواطن يونانى يعيشون خارج بلادهم في أمريكا وألمانيا وأستراليا وكندا وإنجلترا وهم على صلة وثيقة بالوطن الأم مما يجعلهم يسهمون في خدمة وتطوير بلدهم حتى وهم في الخارج.

وأثينا هى عاصمة اليونان، مدينة عريقة اكتسبت أبحاثاً كثيرة منذ فجر التاريخ، وارتبطت باسمها الفلسفة والحضارة، وعاش فيها أبو الفلسفة سقراط وتلميذاه الشهيران (أفلاطون) صاحب الأكاديمية ونظرية المثل، و(أرسطو) صاحب نظرية الوسط الذهبى وغيرهم من الكتاب والفنانين، وقد أخذت المدينة اسمها من ربة الحكمة عند اليونانيين القدماء.. وتروى لنا الأساطير حكاية

تسمية العاصمة بهذا الاسم، فبعد بنائها منذ آلاف السنين تنافس كل من أثينا ونبتون في السيادة عليها واشتد النزاع بينهما فاحتكما إلى ملك ذلك الزمان وهو «أركثيوس» فقرر أن يمن يقدم له أحسن هدية تكون له السيادة على المدينة، وتقدم الإله نبتون فضرب الأرض بعصاه وأخرج منها حصاناً قوياً جميلاً، ثم تقدمت الإلهة أثينا ومست الأرض بعصاها فنبتت في الحال شجرة زيتون، وقبل الملك هدية أثينا، لأن شجرة الزيتون ترمز إلى السلام، وهكذا أطلق على العاصمة اسم الإلهة أثينا إلهة الحكمة.

والشعب اليوناني يعيش حياته بالطول والعرض، إذا جاز لنا استخدام هذا التعبير، فهو يحب الحياة ويعمل ويعرق من أجل حياة أفضل دائماً، ثم يقضى إجازته الأسبوعية والسبوعية في اللهو والمتعة والراحة والاسترخاء، يأكل ما لذ وطاب من الطعام ويعب من البيرة والنبذ والمشروبات الروحية الأخرى، وهذا لا يمنعه من المواظبة على الصلاة والذهاب إلى الكنيسة، بل إن اليوناني إذا مر في الطريق بكنيسة فإنه لا بد أن ينحني ويرسم علامة الصليب على صدره احتراماً وتبجيلاً، ومعظم اليونانيات يحملن في أعناقهن صليباً من الذهب أو الفضة مختلف الأشكال والأحجام وكذلك يفعل أيضاً بعض الشباب.

ولكن كيف يحقق الشعب اليوناني هذه المعادلة الصعبة من عمل متواصل وحب للحياة وتمتع بها وتدين يقرب من التصوف؟

هذا يحتاج لوقف تأمل:

في مجال العمل استطاع الشعب اليوناني أن يعوض سنوات الفقر والخراب والدمار التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وبعد التخلص من الفتن الأهلية التي أعقبت الحرب، كان الاقتصاد إبان ذلك الوقت قد انهار، والمصانع دمرت وتحولت القصور إلى أكوام من التراب، وتدفق الفلاحون على المدن تاركين الأراضي الزراعية للخراب، وانتشرت البطالة حتى وصلت الأزمة في سنة ١٩٤٩ إلى أسوأ حال في تاريخها.. ولم يستسلم الشعب اليوناني أمام هذا الخراب والدمار بل هزم اليأس وقام بجهود جبارة لتعويض ما فاتته وعمل بجهد مؤمناً بقدراته وبلاده، وبدأ التصنيع حتى وصل في السنوات ما بين ١٩٦٥ إلى ١٩٧٥ إلى زيادة إنتاجية بنسبة ١٧٪ مما جعل اليونان تصل إلى مستوى التنمية العالمية، وهذا بفضل الجهود المخلصة للمواطنين في العمل بالإضافة إلى المعونة الأمريكية والتنمية والإنشاء والادخار مما أعطى فرصاً نادرة لتمويل الصناعات ووسائل الإنتاج، واليوم ترتبط اليونان بعلاقات تجارية مع العالم كله، وبخاصة مع العالم العربي ومصر، وتصدر إنتاجها الممتاز إلى كل بقاع العالم مثل سيارات النقل والثلاجات ووقود الطائرات واسطوانات التسجيل والقضبان الحديدية والكوابل والأسلاك والأسمنت والمضادات الحيوية والزيتون والأرز والقمح والزيت وعلب الصلصة وأوراق النظافة وغيرها.

وقد استطاعت اليونان أخيراً وبعد مفاوضات استمرت ١٨ سنة أن تصبح العضو العاشر في السوق الأوروبية المشتركة في يناير سنة ١٩٨١.

ولأن الشعب اليونانى يعمل ويجد فإنه يشعر أن من حقه التمتع بحياته وينتهاز فرص الأعياد والمناسبات المختلفة لينكب على متع الحياة يغترف منها ما شاء أن يغترف من أنواعها المختلفة المتباينة، ولم يكتف بالأعياد الدينية بل جدد أعياداً جديدة تزيد من متعته وحبه للحياة مثل عيد النبيذ الذى ينفرد به شعب اليونان دون شعوب الدنيا، وفي هذا العيد توضع براميل ضخمة مليئة بأجود أنواع الأنبيذة في إحدى الحدائق، ويستطيع أى مواطن أن يشرب ويعب كما يريد نظير أجر رمزى لدخول الحديقة، وحتى تزداد المتعة فإن هذا العيد تطول مدته إلى شهرين تقريباً.. يوليو وأغسطس.. والانسان دائماً لا يستطيع أن ينسى أو يهمل تاريخه وتراثه الحضارى والثقافى والدينى، ولذلك فإن عيد النبيذ هذا يرجع إلى التراث الدينى اليونانى القديم، إذ تحكى لنا الأساطير أن هناك إلهاً للخمر كان ضمن آلهة اليونان القدماء هو الإله «ديونسيوس» الذى اشتهر بحب الخمر والتمتع والخلاعة، وبعد أن اعتنق اليونانيون المسيحية لم ينسو آهتهم القديمة فجعلوا للنبيذ عيداً لا يتعارض مع دينهم الجديد ويخلد في نفس الوقت تراثهم القديم.

وفي عطلة نهاية الأسبوع أو العطلة الصيفية أو في الأعياد يهرع الناس إلى الشواطئ والجزر حيث جمال الطبيعة، أو ينتشرون في أماكن اللهو والمراقص والمطاعم والبارات يأكلون ويشربون ويتمتعون بحياتهم بوسائلهم المختلفة.

وتكتمل المعادلة الصعبة بالتدين الكامل، بجانب العمل الجاد المتواصل، والانكباب على متع الحياة، فالليونانيون متدينون جداً، والاحتفالات الدينية لا تمارس داخل الكنائس وحسب، بل تخرج المواكب في أعياد الميلاد والجمعة العظيمة وعيد القيامة إلى الشوارع مع الكهنة ورجال الدين بملابس الصلاة والأيقونات والشموع المضاءة وصور القديسين في زفة طويلة تجوب أرجاء المدن ويلتف حولها الشعب مهللاً بالعيد فرحاً به.

والمذهب المسيحي الأرثوذكسي هو السائد في اليونان، وتفرض قوانين البلاد على المواطنين عدم الزواج إلا من نفس الدين والمذهب سواء للرجال أو النساء، وعلى هذا لا يستطيع أى أجنبي الزواج بيونانية إلا إذا كان مسيحياً مثلها، أو إذا اعتنق المسيحية لو كان يدين بدين آخر، وفي هذه الحال ترسل الحكومة اليونانية تأشيرة إلى حكومته تعرفها بأن مواطنها هذا قد غير دينه في اليونان، وقد وصلت قوة الكنيسة في اليونان إلى أن هدد أحد كبار رجال الدين رئيس الجمهورية (قسطنطين تساتسوس) بحرمانه من الكنيسة إذا اجتراً ووقع على قانون يبيح الإجهاض

بعد أن وافق عليه البرلمان، فتعاليم الكنيسة لا تبيح الإجهاض،
ويجب على رئيس الجمهورية احترامها والأخذ بها.



عروس يونانية بالزى الشعبى

(٢)

هناك أماكن أثرية سياحية فى كل دولة من دول العالم يحرص
السائح على زيارتها ومشاهدتها ليقف على عاداتها وتقاليدها، ويرى
عظمة الإنسان على مر الزمان فى كل مكان، فلاشك أن تاريخ
الإنسانية وتراثها الحضارى ملك لكل إنسان.. ففى مصر مثلاً
هناك الأهرام الشامخة فى الجيزة، والآثار المتعددة فى الأقصر
وأسوان، ومصر القديمة والمتحف المصرى.. وفى باريس هناك برج
إيفل، ومتحف اللوفر، الذى يحوى روائع أعمال الفنانين العالميين
التشكيليين.. وفى روما يوجد الفاتيكان عاصمة الديانة الكاثوليكية
فى العالم، وكنيسة القديس بطرس التى تحفل بأعمال العملاقين فى

الفن التشكيلي «رافاييل»، «مايكل أنجلو» بجانب الكوليزيوم..
وفي لندن يوجد متحف الشمع وحدائق الهايدبارك.. وفي الولايات
المتحدة الأمريكية يوجد متحف المتروبوليتان وتمثال الحرية.. أما في
اليونان فهناك الأكروبوليس وهي كلمة يونانية تتكون من مقطعين
معناها المدينة المرتفعة، أى القلعة وفي كل بلد من بلاد اليونان
أكروبول خاص بها ولكن أعظمها جميعاً أكروبول أثينا الذى
شيد على أعلى قمة فى العاصمة وهي قمة «أوليمبوس» التى يبلغ
ارتفاعها ١٥٦ متراً فوق سطح البحر، وقد أقيمت قلعة أثينا أو
أكروبولها سنة ٤٣٨ قبل ميلاد السيد المسيح، وهو العصر الذهبى
للعمارة الإغريقية، ومساحتها كبيرة وبها عدة مبان رائعة أهمها
متحف الأكروبول، ومعبد البارثينون الذى استغرق بناؤه ونقشه
خمسة عشر عاماً، وتمثال الإلهة «أثينا» المصنوع من العاج
والذهب.

كان طبيعياً أن أزور الأكروبوليس أو قلعة أثينا، فصعدت
السلم الكبير والطويل فى نفس الوقت، وعلى باب الدخول قرأت
التعليقات التى كتبت على حجر كبير باللغتين اليونانية
والإنجليزية:

* ممنوع الاقتراب أو لمس الآثار.

* ممنوع اصطحاب الحيوانات.

* ممنوع الدخول بأطعمة أو تناول
الساندوتشات.

وهذه التعليمات توجد على أبواب كل متاحف العالم، لكن
الطريف أن هناك تعليمة جديدة على باب الأكروبول هي.. ممنوع
أن تغنى أو ترفع صوتك فى الداخل.



تمثال من معبد دلفى الذى خرجت منه النبوءة التى تقول أن سقراط أحكم رجل فى أثينا
وقد أخذ سقراط يبحث عن هذه الحقيقة.. لماذا هو أحكم إنسان فى أثينا؟ وأخيرا عرف
السبب.. فهو أحكم من فى أثينا لأنه عرف عن نفسه أنه لا يعرف شيئا

ابتسمت وأنا أقرأ هذه التعليمة بالذات، فلاحظت مرافقى وقال
لى.. أنت تعلم أن المدينة كانت معبداً منذ آلاف السنين لذلك لا بد
أن يسود الهدوء فيها حتى يشعر الزائر بجلال وأهمية المكان.

وهناك رسم دخول أو تعريف لدخول الأكروبول، ثم تعريف
أخرى لزيارة المتحف داخل القلعة وهو ما يعادل جنيهاً مصرياً

واحدًا، ومن فوق الأكروبول رأيت «بانوراما» اى منظرًا كليًا لمدينة أثينا النظيفة رائعة الجمال عاصمة الفكر الفلسفى والدرامى القديم، وشعرت كأنتى أطلع من نافذة طائرة لا من أعلى مكان فى المدينة، ثم دلفت إلى داخل المتحف الذى يقع على مساحة صغيرة فى الجانب الأيمن من الأكروبول، وتجولت سريعًا داخل قاعاته، وشاهدت مجموعة من الآثار اليونانية القديمة، والتماثيل التى ترك الزمن عليها بصمته لكنه لم يتركها كاملة، والعجيب حقًا أن المتحف اليونانى الرومانى فى مدينة الإسكندرية عندنا يحوى آثارا وتماثيل يونانية أغنى بكثير من التى يحويها متحف الأكروبول فى أثينا، ومع ذلك فرسم دخول المتحف عندنا لا يساوى عشر ما يدفعه الزائر لمتحف الأكروبول.

وسألت مرافقى عن سجن صديقى سقراط، أبى الفلسفة الذى استشهد فداء لمبادئه وتعاليمه عام ٣٩٩ قبل ميلاد السيد المسيح، ارتسمت علامات الدهشة والتعجب على وجه مرافقى ثم قال: صديقك سقراط! قلت: نعم، لقد سمعت أن سجنه يقع هنا فى الأكروبول.. قال: حقيقة إن السجن يوجد فى هذه المنطقة.. وسنبحث عنه، لكن ما هى حكاية صداقتك بسقراط؟

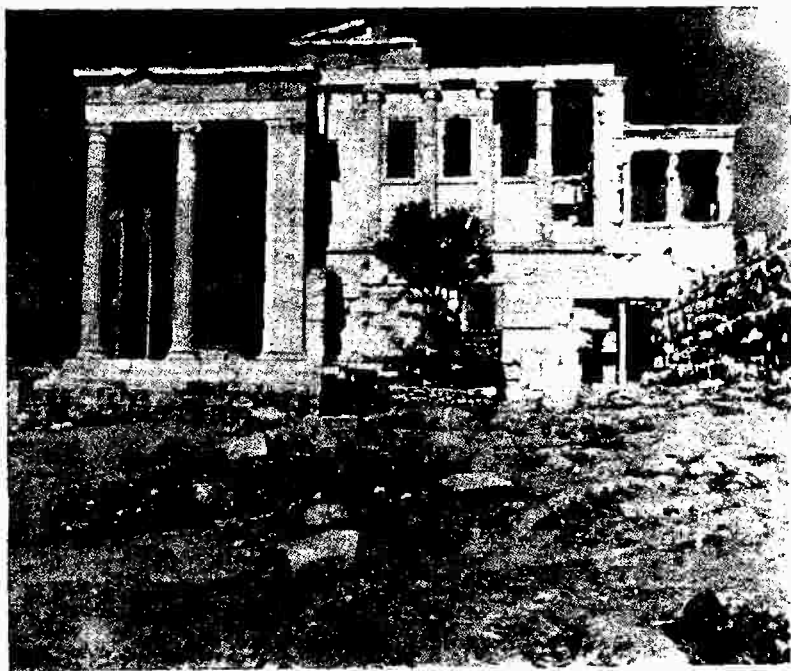
ابتسمت قائلاً إننى من المعجبين جدًا بأبى الفلسفة، وقد قرأت كثيرًا عنه وله، وتأثرت بتعاليمه ومبادئه، وأعجبت بطريقته فى محاوره الناس التى تعتمد على «التهكم والتوليد» فكان يوجه

أُسئلة إلى الناس ثم يحاورهم حتى يصلوا إلى الإجابة بأنفسهم فيكونوا مقتنعين، والأهم من كل هذا أن سقراط كان متواضعاً متبسطاً مع الناس على رغم صفاء ذهنه وعمق تفكيره وحبّه للحكمة، من هنا ارتبطت بصداقة معه وأحببته واعتبرته صديقاً عزيزاً وأستاذاً جليلاً بالرغم من اختلاف العصور ومرور آلاف السنين.

إذن هيا بنا نبحث عن سجن صديقك سقراط.

وأخذنا نبحث هنا وهناك حول الأكروبول فلم نجد السجن واضطر المرافق أن يسأل أحد المارة فكانت إجابته تهكماً وسخرية منا فقال: أنت تسألني عن سقراط مالى أنا وسقراط، هل تعلم متى عاش هذا الرجل في اليونان؟ وسألنا آخرين ولكن أحداً لم يدلنا على المكان.

ودهشت وتأسفت وتعجبت كيف أن سقراط وهو إحدى العلامات البارزة في الفلسفة العالمية، وأول من أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، أى حول التفكير الفلسفى من البحث في مجال «الميتافيزيقا» ما وراء الطبيعة إلى التفكير والبحث في الإنسان وحرية والقيم الضرورية في حياته مثل الخير والحق والجمال والعدل والشرف، كيف لا يهتم شعب اليونان وحكومته بذكرى هذا المفكر الفحل؟ وببيته وسجنه وقبره؟ وأحسست بالمأساة.



جزء من الأكروبول «قلعة أثينا»

وصاح مرافقى قائلاً: لقد وجدته.. إنه هناك، هذه اللافتة تدل على ذلك، وذهبنا إلى المكان فرأيت حجرة صغيرة ضيقة ليس لها باب وإنما بعض أعمدة حديدية تغلقها، وقلت.. ليس من المعقول أن تكون هذه الحجرة سجن سقراط، لأن تاريخ أبي الفلسفة الذى رواه لنا أفلاطون فى محاوراته الرائعة البارعة يقول إن سقراط كان يجتمع فى سجنه مع تلاميذه ومحبيه ويتناقش معهم وهم

يتمشون جيئة وذهابا.. وهذا لا يتفق مع مساحة المكان التي لا تسمح لأكثر من جلوس اثنين أو ثلاثة أشخاص.

قال الصديق المرافق مازحاً:

يبدو أنك صديق صدوق لسقراط وتعرف عنه كل شيء حتى دقائق حياته.. على العموم ربما يكون هذا المكان، أو قريباً منه أو أن يكون هذا جزءاً من السجن لأن اللافتات المعلقة لا تثبت شيئاً للأسف.

والأكروبول الآن يعاني من خطر التصدع والشيخوخة، ولذلك تجرى عمليات الترميم هنا وهناك، وطبيعي أن يطلب منا الحراس الابتعاد عن المعابد التي يحتمل أن تنهار في أية لحظة، والتي تغلفها أسياخ من الحديد لتحفظها حتى يتم ترميمها، نفس عمليات الترميم التي شهدتها معابد فيلة وأبو سمبل بأسوان ومدينة أبو سمبل، والتي احتفلنا بانتهائها عالمياً سنة ١٩٨٠.

أما عن أسباب التصدع والعطب الذي أصاب الأكروبول فهي كثيرة: منها الزمن وعوامل التعرية، والصواعق وكثرة الدخان الناتج عن عوادم المصانع والسيارات وأجهزة التدفئة المنتشرة في كل بيوت أثينا والتي تعتمد على الفحم وليس على الكهرباء، ومن أجل إنقاذ الأكروبول الذي يحفظ حضارة الإنسان القديم أعلن «أحمد وامبو» مدير عام اليونسكو عام ١٩٧٧ أن أكروبول أثينا يواجه لأول مرة في تاريخه ومنذ ٢٤٠٠

سنة خطر الإنهيار وأن التلوث الجوى المحيط بالعاصمة اليونانية بدأ يتفاعل مع رخام التماثيل وصخور المعابد ليحولها على مدى سنوات قليلة إلى تراب، وطلب مدير عام اليونسكو من الدول الأعضاء فى المنظمة وعددها ١٤١ دولة ومن هيئات العالم وجامعاته والمهتمين بالآثار والفنون المساهمة فى إنقاذ الأكروبول حيث أنه عمل بهم الإنسان أينما كان، وبدأت فعلاً الترميمات التى شاهدها هناك والتى ما زالت تحتاج إلى سنوات من العمل حتى يتم الإنقاذ الكامل، ذلك أن هناك عمليات دقيقة يحتاج إليها أحياناً كل حجر بما عليه من نقوش تعبر بدقة عن حياة القدماء وحضارتهم.

إن الذى يجرى فى أثينا الآن لترميم المعابد وعلاج الآثار وحماية الأكروبول لدليل قاطع على عظمة الإنسان عندما يجد جزءاً من تراثه يكاد يضمحل فإنه لا يسمح بذلك، ويسارع من كل مكان وكل بلد على اختلاف الأجناس واللغات من أجل المحافظة على تراث الإنسانية فهو ملك للجميع.